من الشباب الباكر إلى النضج (4)

الأخ محمد قطب

وأخيراً تحدثنا عن النمو الروحي في فترة الشباب الباكر .

وبديهي أن يكون منهج التربية الإسلاميّة حفياً شديد الحفاوة بالنمو الروحي ، لأنه القاعدة الحقيقية للتربية كلها في المنهج الإسلاميّ ، كما أشرنا إلى ذلك في الكتاب الأول من (منهج التربية الإسلاميّة) في فصل (تربية الروح) .

ولا نحتاج أن نعيد هنا ما قلناه هناك

إنما نقول فقط إنه حيث تجنح الجاهلية المادية المعاصرة إلى طمس الجانب الروحي في نفوس الـــشباب ، حـــتى في صورته الوثنية الضالة التي كان عليها في القرنين السابقين من عبادة الطبيعة وغيرها من العبادات الضالة .. فإن التربية الإسلاميّة ترتكز ارتكازاً واضحاً على الجانب الروحي ، لأنه هو الذي ينشئ الصلة العميقة بالله ، ويـــربط القلـــب البشري به ، يحبه ويخشاه .

والشباب بفطرته –كما قلنا من قبل– يحس بالتفتح الروحي في تلك الفترة ، ويتعلق بقضية الألوهية ، كما يحس بمشاعر عميقة من المودة للكون والحياة والأحياء .. أفيكون عملنا نحن أن نطمس هذا التفتح ونغلق عليه منافذه ، في الوقت الذي نوسع فيه منافذ الجنس حتى يصبح جنوناً مسعوراً يلتهم كيان الشباب ؟! ولحساب من .. ؟!

وإذا كانت مناهج التربية الجاهلية في الغرب اليوم تزعم أنها تأخذ الواقع البشري كما هو بأمانة (علمية!) فـــأين تذهب هذه الأمانة يا ترى حين يتعلق الأمر بجانب الروح ؟ ولماذا تخنس الجاهلية هنا بينما ترفع رأسها جاهزة هناك؟!

أما الإسلام الذي يلتقي التقاءً كاملاً مع الفطرة السوية لأنه دين الفطرة ، فإنه يعمق هذا الجانب تعميقاً على ذات النهج الذي يعمق ويقوي به كل اتجاه آخر في الكيان البشري .

فإذا كنا ننمي جسده ، وننمي عقله ، وننمي عواطفه ، وننمي اهتماماته ، فلماذا تبقى الروح وحدها بغير نماء ؟!

كلا ! إنها ينبغي أن تأخذ نصيبها الطبيعي من التنمية ، بل أن تكون حجر الأساس في التربية كلها لأن هذا هـــو الذي يجعل الإنسان في أحسن تقويم كما خلقه الله ، منذ خلقه من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص : 71-72]

والتربية الإسلاميّة تأخذ التفتح الروحي التلقائي لدى الشباب فتوجهه إلى حب الله وخشيته وهما الخيطان اللذان يربطان القلب البشري بالله واللذان هما خلاصة العبادة وثمرتها كذلك :

﴿ ... يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ... ﴾ [الإسراء : 57]

والوسيلة هي ممارسة العبادة بكل ألوانها ، مع الزيادة فيها –بالنوافل والتطوع– بقدر ما تطيق نفس كل شـــاب ، دون قهر ولكن بالتحبيب والترغيب ، ففي الصلاة فروض ونوافل ، وفي الصيام فروض ونوافل ، وفي الزكاة فروض وتطوع ، وفي الحج والعمرة كذلك .

وتلاوة القرآن وحفظه من المعينات ولا شك . ولكن قراءته مع أحد التفاسير أبلغ نتيجة وأعمق أثراً من الحفـــظ وحده ، لأن التدبر مطلوب من المسلم ، ولن يستطيع التدبر الصحيح دون أن يستعين ببعض التفاسير .

وقراءة أحاديث الرسول ﷺ وخاصة ما جاء في باب الترغيب والترهيب تكمل الجو الذي يحدثه القرآن في النفس.

والحياة مع السيرة النبوية المطهرة ترفع الروح إلى آفاق عليا حين يعيش الإنسان مع أعظم شخـــصية في الوجـــود البشري كله ، ويقبس من الرسول ﷺ تستضيء بها روحه وترفرف مع الملأ الأعلى .

وقراءة سير الصحابة رضوان الله عليهم تندي الروح وتعمق بشاشة الإيمان ، لأنها نماذج بشرية فائقة كانت تعيش كل لحظاتها مع الله ، كما وصفهم الله :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَات لأُولِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَـــذْكُرُونَ اللَّـــهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُـــبْحَانَكَ فَقِنَـــا عَذَابَ النَّارِ ۞ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۞ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًـــا يُنَـــادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ۞ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَـــدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُـــسْنُ الثَّـــوَابِ ﴾ [آل عمران : 190-195]

هذه كلها وسائل معينة على تربية الروح . ولكن المنهج الإسلاميّ –وهو يعمق الجانب الروحي ويركز عليه– لا يدعه تهويمات روحية مجردة ، ولا مجرد ذكر بالقلب أو اللسان كما تصنع بعض الحركات التربوية الروحية في تــاريخ الإسلام المعاصر أو تاريخه السابق ، سواء في حلقات الذكر أو في العزلة الروحية المنصرفة إلى العبادة بمعــنى الــشعائر التعبدية .

إنّ هذا الوصف الرباني ذاته الذي يصف فيه المولى جلّ وعلا تلك الفئة الفريدة من البشر التي تربت تربية كاملــة على المنهج الإسلاميّ ليلفت نظرنا بشدة إلى حقيقة إسلامية رئيسية ، هي أن وجدانات القلب وحــدها ، والتــذكر والتفكر والتدبر ، كلها لا تكفي وحدها لإقامة الحياة الإسلاميّة والحركة الإسلاميّة .

إنّ النص القرآني يعرض صورة شفيفة وضّاءة (لأولي الألباب) الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلــى جنــوبهم ويتفكرون .. ويعرض صورتهم وهم يتضرعون إلى الله ضراعة حارة أن يكفر عنهم سيئاتهم ويغفــر لهــم ذنــوبهم ويدخلهم الجنة .. ثم يقرر النص أن الله قد استجاب لضراعتهم فكفّر عنهم سيئاتهم وغفر لهم ذنوبهم وأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار . فمتى استجاب سبحانه ؟ هل استجاب للتذكر والتفكر والتدبر ؟ أو اســتجاب للــضراعة الإيمانية الحارة ؟ إنه استجاب سبحانه حين تحول هذا إلى **عمل** : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِــلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** ... ﴾

فالدرس إذن هو أن تتحول الأفكار والمشاعر إلى عمل مشهود في واقع الأرض ..

والتربية الروحية الصحيحة ينبغي أن تهدف إلى ذلك . فلا تكتفي بذكر اللسان والقلب ، ولا بالشعائر التعبديــة لتعميق الإيمان . إنما تسعى إلى تكوين تلك الصورة الشفيفة التي يصفها القرآن .. أن يحدث الذكر بالعمل وفي أثنــاء العمل لا بالشعائر التعبدية فحسب .

لقد كان ذلك المسلم يذكر الله فيجاهد في سبيل الله بماله ونفسه لأن الله الذي يذكره بلسانه وقلبه يأمره بذلك . وكان يذكر الله فيتحاكم إلى شريعته ، لأن الله الذي يذكره يأمره بذلك . وكان يذكر الله فيعدّ ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل لإرهاب عدو الله . وكان يذكر الله فيطلب العلم . وكان يذكر الله فيضرب في فجاج الأرض يبتغي من رزق الله وفضله . وكان يذكر الله فيقوم بعمارة الأرض . وكان يذكر الله فينشر الــدعوة . وكــان يــذكر الله فيحتمل الأذى في سبيل الله .. ثم يظل –وهو يؤدي هذه الأوامر الربانية كلها– ذاكراً الله ، موصول القلب بــالله . وهذا هو سر عظمتهم الفذة التي لا مثيل لها في التاريخ ..

لقد كان ذلك المسلم أعمق روحانية بكثير من ذلك الذاكر في خلوته ، أو القائم بشعائر التعبد فحسب . فــإن حمل هذه الروحانية والتحرك بها دون أن تتناثر أو تغيض أعمق بكثير وأهم بكثير من حملها في حالة السكون .

حقيقة إنّ حملها في حالة السكون هو ذاته مرحلة من مراحل الروحانية والشفافية تحتاج إلى جهد ومجاهدة حـــتى يصل الإنسان إليها ويصبر عليها ويستسيغها فلا تعود نفسه تتفلت منها . ولكن كم يدل علـــى عمـــق الروحانيـــة وتمكنها من النفس أن تتحرك في واقع الأرض وأنت محافظ عليها لا تتفلت منها نفسك ولا تعرض عنها (لتتفرغ) إلى العمل ؟

إنها لا شك درجة أعمق وأقوى ، وأجدر بمحاولة الوصول إليها . ولقد كانت هي سر عظمة ذلك الجيـــل ، أو من أسرار عظمته الأصيلة ، التي من أجلها استحق ذلك الوصف الرباني الكريم : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّـــاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ... ﴾ [آل عمران : 110]

والخلوة لا شك ضرورية بين الحين والحين . ولقد كان رسول الله ﷺ يقوم الليل ليخلو إلى ربه ، وهو الموصـــول القلب لا يغفل عن ذكر الله لحظة ، لأن ناشئة الليل -كما علمه ربه- ﴿ ... **هِـــيَ أَشَـــدُّ وَطْئًـــا وَأَقْـــوَمُ قِـــيلاً** ﴾ [المزمل : 6]

ولكن العظمة الحقيقية هي أن يظل الإنسان في روحانيته ، كلها أو بعضها ، حين يقوم يمارس العمـــل في واقـــع الأرض ، فلا يشغله العمل عن الروحانية ولا تشغله الروحانية عن العمل . بل تكون الروحانية هي الـــتي تحفـــزه إلى العمل وإلى التمكن منه على أعلى الآفاق !

هل رأيتهم -جيل الصحابة رضوان الله عليهم- وهم يقاتلون ؟ هل رأيتهم وهم يضربون في مناكـــب الأرض ؟ هل رأيتهم وهم يتزوجون وينسلون ؟ هل رأيتهم وهم يقيمون السوق في المدينة ويروحون ويجيئون في التجارة .. إلخ ؟ هل تظن أن أحداً من أهل الدنيا المتفرغين لها كان أشد منهم وطأة أو أشد تمكّناً في عمله منهم ؟! ومع ذلك كانوا يحملون ذلك النور الصافي في قلوبهم ، الذي يضيء لهم أرواحهم من الداخل ، ويضيء أمامهم الطريق فيـــصلون إلى الغاية في أسرع وأقصر مما يصل طلاب الدنيا المتفرغون !

إنك تحتاج إلى سعة نفسية مضاعفة لتحمل في نفسك طاقة الروحاني المتفرغ للروح ، وطاقة الأرضـــي المتفـــرغ للأرض . ثم تحملها ممتزجين متفاعلين لا في عزلة هذه عن تلك .

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . فإنها هي الذروة العليا من التربية على المنهج الإسلاميّ الأصيل .

وكما ربى رسول الله ﷺ أصحابه فلنرب أنفسنا وأبناءنا على ذلك .

وإنه لجهد ولا شك . ولكنه هو الجهد المثمر . هو الجهد القمين بأن يغيّر واقع الأرض حقاً كما غيرته تلك الحفنة القليلة من المؤمنين في زمن وجيز لا مثيل له في كل التاريخ البشري ، في قصره وسرعته وعظمة آثاره .

وحين نربي جيلاً من الشباب على هذا النحو ، نكون قد صنعنا شيئاً حقيقياً لا للمسلمين وحدهم ، ولكن لكل البشرية .

❍ ❍ ❍

على هذه الصورة الشاملة المتكاملة يعالج الإسلام النمو الجسدي والنمو النفسي والعاطفي والعقلي والروحـــي في مرحلة الشباب الباكر فيصل به وشيكاً إلى مرحلة النضج .

وغنيّ عن البيان أن الجاهلية لا تتركنا نربي أبناءنا على هذا النحو ، لأن الجاهلية -في التاريخ كله- تكره النظافـــة النفسية والروحية وتتضجر من وجود المتطهرين فيها فتقول : ﴿ ... **أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّـــرُونَ** ﴾ [الأعراف : 82] لأن مجرد وجود النظافة -ولو في فرد واحد- يذكرهم بأنهم ملوثون ، وهم لا يريدون أن يتذكروا لأنهم يستمرئون الدنس الذي هم فيه . ومن أجل ذلك يطاردون ما يذكّرهم يحاولون أن يمحوه من الوجود :

﴿ **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً** ... ﴾ [النساء : 89]

والجاهلية تطارد الشباب بالدنس الدائم في الإذاعة والصحافة والسينما والتلفزيون والنوادي والشوارع بل حـــتى داخل البيوت ! ثم تتبجح فتقول : (تدين إذا شئت فنحن لا نحارب الدين !)

كان هذا كله ليس حرباً على الدين !

ومع ذلك فحين تتدين بالفعل تنقض عليك الكلاب ! لأن مجرد تدينك معناه أنك تحديت كل الشراك المنـــصوبة لك بيد الجاهلية . معناه أنك أشرت إليهم -ولو في داخل نفسك- فقلت لهم : إنكم ملوثون !

وقد تتغاضى عنك الجاهلية إذا كنت من أصحاب العزلة الروحية لأنها تقول في سرها ، دعه ينشغل عنا في عزلته ونمضي نحن فيما نريد ! ولكنها لا تتغاضى عنك حين تتدين التدين الحق الذي يريده الله ، الدين المتحـــرك في واقـــع الأرض . الدين الذي يغيّر واقع الحياة .

ورغم ذلك فلا بد من التربية الإسلامية لكي نكون مسلمين .

وأيّاً كان الجهد الذي يبذله السابح ضد التيار ، ويبذله المدرب الذي يدربه .. وأيّاً كانت الأخطار المحيطة بهما ، فليس هناك طريق آخر . ليس هناك طريق سهل ميسر مأمون ، ما دامت الجاهلية هي التي تحكم ، وليست شـــريعة الله .

ولقد نبذل الجهد ولا نصل إلى الغاية المطلوبة بالصورة التي نريد . ولكن هذا ليس معناه إلغاء المحاولة والركون إلى القعود .

أولاً ، لأنه بغير المحاولة فلن نصل إلى شيء على الإطلاق !

وثانياً ، لأننا حتى إن لم نبلغ الغاية التي نريدها على المستوى الذي نريده ، فلن نكون قط على صورة الجاهليـــة ، لأن الجاهلية تستمرئ الدنس وتريده ، أو على الأقل تسلم نفسها له بلا مقاومة . أما نحن فنريد ما أمرنا الله أن نريده ونسعى إلى تحقيقه .

وثالثاً ، لأننا حتى إن فشلنا فشلاً كاملاً -وذلك لا يحدث في الحقيقة- فإن من فضل الله علينا أنه يثيبنا على الجهد الذي نبذله لا على النتائج التي نتوصل إليها ؛ وحين نبذل جهد الطاقة فإنه يثيبنا بما تهفو له كل نفس مؤمنة : رضـــاه والجنة .

❍ ❍ ❍

تحدثنا حتى الآن عن الشباب المسلم في مجال التربية الإسلامية ، وقلنا في مقدمة الفصل إن الفتاة تنضج أسرع من الفتى في تلك المرحلة وتنضج على خط آخر ، وإنه من أجل هذا يلزمنا أن نتحدث حديثين مختلفين عن الشباب وعن الفتاة .

وعلى الرغم من وجود مشابه عامة في خط النمو ، فهو نمو جسدي ، ونمو في المواهب والاستعدادات ، ونمو في الاهتمامات النفسية ، ونمو عاطفي ونمو عقلي ونمو روحي ، فإنه -كما قلنا- يأخذ عند الفتاة صورة متخصـــصة لا يصلح معها أن نربيها على طريقة الفتى وإن اتحدت الأهداف العامة في النهاية ، وهي تربية الفرد المـــسلم والأســـرة المسلمة للوصول إلى المجتمع المسلم والدولة المسلمة .

الفتاة أسرع نمواً بصفة عامة في الناحية الجسدية والنفسية والعاطفية ، بحيث نستطيع أن نضع فتاة السابعة عشرة -من حيث النضج الجسدي- في مستوى الشاب الذي تجاوز العشرين بسنوات ، كُلٌّ على طريقته . فحيـــث يكـــون النمو عند الشاب هو قوة العضلات وامتلاؤها ، وصلابة العود والذكورة البادية في كل شيء ، يكون النمـــو عنـــد الفتاة استدارة العضلات ولينها ، والأنوثة البادية في كل شيء .

والنمو النفسي والعاطفي يكون دائماً متساوقاً مع النمو الجسدي . فالفتاة التي نما جسمها وأعضاء أنوثتها هـــذا النمو في السابعة عشرة ، قد نمت نفسياً وعاطفياً كذلك -على اتجاهها الخاص- أكثر مما نما الشاب نفسياً وعاطفيـــاً على اتجاهه ، فأصبحت مهيأة لأن تكون ربة بيت ، وتكون زوجة وأماً ، بما لم يتهيأ مقابله شاب السابعة عـــشرة أن يكون مسؤولاً عن بيت ، أو يكون زوجاً وأبا . ولذلك لا يتناسب مثلاً أن تتزوج فتاة في السابعة عـــشرة شـــاباً في

السابعة عشرة (وهي في الواقع لا ترضى به !) لأنها تكون هي أنضج منه وأسبق في النمو ! إنما يتناســب أن تتــزوج شاباً قد جاوز العشرين فيحدث التكافؤ المطلوب .

وبصرف النظر مؤقتاً عن نوع النمو المتخصص فأي جريمة نرتكبها في حق الفتاة -بحجــة تحريرهــا ومــساواتها بالرجل- أن نعطلها سبع سنوات أو ثماني سنوات في أخصب فترات نموها حتى يلحق بها الشاب ويساوقها -علــى خطه- في درجة النمو ؟!

ونحن نعطلها بطريقة الدراسة ومراحلها وسنواتها ، المفصلة أصلاً على قد الشاب لا الفتاة ، بزعم أنهمــا -مــن الناحية العقلية- يستوعبانها بطريقة واحدة وعلى مستوى واحد .

وهذا الزعم قد يكون صحيحاً صحة كاملة . فإن النمو العقلي -بمعنى القدرة على الــتفكير ونــسبة الــذكاء- يتساوق عند الفتى والفتاة بنسبة واحدة أو نسب متقاربة . ومن ثم يمكن -كما يحدث الآن- أن تتلقى البنت والولــد مواد دراسية واحدة ، وتكون نسبة تحصيلهما منها ونجاحهما فيها متساوية . أو تتفوق الفتاة أحياناً حين تستطيع أن تحبس نفسها عن المشاغل التي تشغل الولد في نوادي الرياضة أو تجمعات الطريق . ولا يكون التفوق حينئذ لمزيد من الذكاء أو القدرة إنما لبذل مزيد من الجهد الموفور .

ولكن العبرة ليست بالقدرة العقلية على الدراسة والتحصيل . فنحن لا نعيش بعقولنا وحدها ، ولكــن بكياننــا كله . كياننا النفسي والعاطفي والجسدي والعصبي ، بالإضافة إلى كياننا العقلي والروحي .

فماذا تجدي المساواة في جانب واحد -حتى إن كانت كاملة- إذا كان الاختلاف قائمــاً في بقيــة الجوانــب ؟ وكيف نستخلص الجانب المماثل وحده فنفصله عن بقية الكيان ؟!

ولقد مر بنا الحديث عن محاولات الجاهلية المعاصرة لإحداث المساواة المفتعلة في بقية الجوانب حتى تصبح المــرأة رجلاً أو امرأة رجلة . وبصرف النظر عما تحدثه تلك المحاولات من تشويه في الفطرة ، فإن النتائج العملية ذاتها تقول إنّ المرأة الجاهلية الغربية قد شقيت بفطرتها المشوهة تلك أكثر مما كانت تشقى وهي مظلومة مهدرة الكيان في المرحلة السابقة من تلك الجاهلية ، وإنها بدأت تشعر هي نفسها بذلك ، وتطالب لنفسها أن تكون أنثى حقيقية وربة بيــت وزوجة وأم أولاد .

ودلالة ذلك أن هذه المحاولات لم تستطع في النهاية أن تغير حقيقة الفطرة رغم كل ما صاحبها من النشوة المؤقتة بالظفر والتحرر والانطلاق . لأن الفطرة -كما تقول ألكس كاريل بحق- أعمق بكثير من كل محاولة لتغييرها .

إنّ الدراسة المشتركة على برامج موحدة ومراحل دراسية وسنوات موحدة لم تلغ فوارق الفطرة العميقة و لم تــؤد إلى المساواة المطلقة في كل شيء فما قيمتها إذن ، ولماذا نصر عليها ؟! إلاّ أن تكون الرغبة المحمومة في تحدي الفطرة .. من أجل الشيطان .

وقد لا تستسيغ الفتاة وحُمّى المعركة دائرة ما تزال –ولفترة غير قصيرة بعــدها– أن ترجــع عمــا يــسمونه (انتصارات) للمرأة ! وأن تعود إلى تلقي برامج نسوية خاصة ، لأن ذلك مرتبط في حسها بالمرحلة التي كان يقال لها فيها إنها (دون) الرجل ، وإنها لا تصلح للدراسة التي يتلقاها الرجل لأن استعداداتها دون استعداداته . كما أنه مرتبط في حسها كذلك بالفترة التي كانت الجاهلية تعيّرها فيها بأنها تحمل وتلد وتقوم بشؤون البيت الحقيرة بينمــا يخــتص الرجل بجلائل الأعمال ! وتعيّر فيها جملة بأنها أنثى مهما قام به من أعمال !

والإسلام ليست مهمته مساوقة الجاهلية ولا مداهنتها لكي ترضى عنه !

﴿ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۞ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : 8-9]

إنما جاء الإسلام لتقويم الجاهلية وردها إلى سواء الفطرة باتباع منهج الله .

وفي الجوّ الإسلامي لا تعيّر المرأة بأنها تحمل وتلد وتلي شؤون المنــزل ، إنما تكرم من أجل ذلك :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْــكُرْ لِــي وَلِوَالِــدَيْكَ إِلَــيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان : 14]

والإشارة واضحة في الآية . فالوصية بالإحسان هي للوالدين كليهما ، ولكن الذي يذكر تفصيلاً هي الأم جــزاء ما قامت به من عمل جليل هو الحمل والرضاعة حتى الفصال .

والرجل يسأل الرسول ﷺ : « **من أولى الناس بحسن رعايتي ، قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : ثم أمــك ! قال : ثم من ؟ قال : ثم أمك ! قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك !**»

وقوامة الرجل على المرأة ، التي تأباها الزميلة الجاهلية من زميلها الجاهلي وهما جالسان إلى مقعد واحد في حجرة الدراسة يتنافسان ويتناطحان بقضية المساواة ، ليست في الإسلام لإهانة المرأة وتحقيرها وإنما هي لتنظــيم التبعــات ، وتوزيع التكاليف بحسب الاستعدادات . فكيان المرأة الذي ينمو فيه الجانب العاطفي ليتواءم مع وظيفة الأمومة ورعاية الطفولة ليس هو الأصلح لوظيفة القوامة وحمل التبعات ، التي تحتاج إلى الجانب العقلي والفكري أكثر ، وهو الجانب الذي ينمو عند الرجل أكثر من الجانب العاطفي المتقلب بطبيعته ، المتغير على الدوام ، والذي يكون في مكانه الطبيعي في كيان المرأة ليتلقى مطالب الطفولة المتقلبة المتغيرة على الدوام !

وخالق الفطرة هو أعلم بها وأعلم بما يصلحها ويصلح لها .

ولكن خالق الفطرة لم يقل إنّ الرجل أعلى في درجة الإنسانية من المرأة أو إنّ المرأة من نوع آخـــر غـــير نـــوع الرجل . إنما قال سبحانه :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ... ﴾ [النساء : 1]

﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** ... ﴾ [آل عمران : 195]

والمرأة ذات الفطرة السوية تعتز بأنوثتها كما يعتز الرجل السوي برجولته سواء بسواء ، لأن الله جعـــل ذلـــك الاعتزاز في فطرة كل من الجنسين بجنسه . فإذا جاءت جاهلية من الجاهليات –أو كل الجاهليات– فحقّرت المرأة لأنها تحمل وتلد وتقوم بشؤون البيت ، فإن الإسلام لا يحقّرها من أجل ذلك . بل يخبرها بأن الله يعطيها ثوابها على القيام بوظيفتها بقدر ما يأخذ الرجل ثوابه على القيام بوظيفته . فالجنة التي تمنح للمقاتلين والشهداء في سبيل الله هي ذاتهـــا الجنة التي تدخلها المرأة الصالحة التي قامت بحق زوجها وأولادها .

ومن هنا لا تشعر المرأة المسلمة –في المجتمع المسلم الحق– بتلك القضية المجنونة المثارة في الجاهلية المعاصرة . إنمـــا المسألة في حسها –وفي حس الرجل المسلم كذلك– أنها قضية تكامل بين شِقّي النفس الإنسانية وليست قضية تناطح على المساواة ، وأنها كما وصفها الله :

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الروم : 21]

ثم إنه لقاء للتعاون لا للخصام والتنافس . لقاء من أجل تكوين أسرة وتنشئة أطفال يتكون منهم الجيل الجديـــد . فهي إذن مسؤولية أكبر من شخصي الزوج والزوجة ، وأهم من أن ينشغل الناس عنها بالتفاهات .

ومنهج التربية الإسلامية –في المجتمع المسلم الذي يلتزم بشريعة الله وينفذ أوامره– يعدّ الفتاة المسلمة في مرحلـــة الشباب الباكر لمهمتها العظيمة المرتقبة ، حتى إذا جاءت الخطبة وجاء الزواج كانت مهيأة لدورها التهيئة الملائمة .

والتهيئة في الحقيقة تبدأ من دور المراهقة ، إن لم تبدأ بصورة مخففة من قبل ذلك ، من نهايـــة فتـــرة الطفولـــة ، بتكليف البنت ببعض أمور البيت الخفيفة التي تكسبها التعود على رعاية أموره في المستقبل . ولكن من فترة المراهقـــة يبدأ الإعداد الجاد لتهيئتها لتكون ربة بيت . ذلك أن الفتاة تدلف من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الشباب الباكر بسرعة ملحوظة كما قدمنا . فينبغي ألا يتأخر الإعداد فيجيء الشباب فالنضج وهي لما تتهيأ بعد لمهمتها .

وإدارة البيت ورعاية شؤونه فن يحتاج إلى التدريب عليه ، ولا يتم بين يوم وليلة . فهو لـــيس مجـــرد طبخـــات تطبخها حتى تجيدها ، ولا مجرد تنظيف المنـــزل وترتيبه . إنما هو قبل كل شيء مسؤولية . وفرق كبير بين فتاة دربت على القيام بهذه المسؤولية وفتاة لم تدرب عليها ، وإن أجادت الطهي والتنظيف والترتيب . إنما الشعور بالمسؤولية هو الحافز الذي يحفز على متابعة شؤون البيت ، ووضع كل شيء مكانه ، وإعداد العدة لما يحتاج إلى إعداد . وملاحظـــة ما يتلف أو يضطرب نظامه . ومنع أكبر قدر ممكن من الفساد والتلف والاضطراب ، وتهيئة أكبر قدر مـــن التنظـــيم وحسن سير الأمور . وهذا أمر مختلف عن إتقان الطهي أو القدرة على التنظيف والترتيب ، وغن كانت هذه كلـــها مطلوبة ولا شك . ولكنها -وحدها- لا تكوّن ربة البيت ، إن لم يكن معها هذا الشعور بالمسؤولية . وهو هو الذي نوه به الرسول ﷺ : « ... **وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا** » في الحديث المعروف الذي يبـــدأ بقوله ﷺ : « **كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ** ... » رواه البخاري

وعلى طريقة الإسلام في التربية بالعادة -بعد القدوة- وتربية هذه العادة في سن باكرة ، سابقة علـــى التكليـــف الفعلي ، فإن التربية الإسلامية تبدأ في تعويد البنت على هذه المسؤولية منذ فترة المراهقة لتكون قد تدربت عليها حين تأتي مرحلة الشباب الباكر التي قد تمارس التكليف فيها في أية لحظة إذا قدر للفتاة أن تتزوج في سن مبكـــرة ، كمـــا كان الحال في المجتمع الإسلامي -قبل انتقال عدوى الجاهلية إليه بعد تنحية شريعة الله عن الحكم ، وتنحية منـــهج الله عن العمل- وكان هذا هو الذي يتمشى مع الفطرة السوية كما خلقها الله .

أما في الجاهلية المعاصرة فالفتاة لا تتدرب على عمل البيت .. لأنها في البيت مشغولة بالاستذكار للمدرسة ، وفي المدرسة تأخذ مناهج البنين التي لا تدرّب على شؤون البيت !

بل تستنكر البيت في الجاهلية المعاصرة أن (تدخل المطبخ) أو تقوم بأي عمل من أعمال البيت على الإطلاق !

وي ! أتكون مثل أمها (العتيقة) التي انتهى زمانها ووضع جيلها على الرف ؟!

وي ! أتتسامع بها زميلاتها في المدرسة فيتضاحكن عليها ويعيرنها ؟!

كلا ! إنما تقوم بأعمال المنـــزل الفتاة التي لم يقدر لها -لأي سبب- أن تتعلم ! أما المتعلمة فلماذا تصنع ذلك ؟ إنها تعد نفسها للوظيفة بعد إتمام دراستها الجامعية .. وليقم بعمل المنـــزل من يشاء !

فإذا فاجأها الزواج في نهاية المطاف وجدت نفسها -فجأة- بلا عدة ولا تدريب ولا استعداد !

والجاهلية المعاصرة تزعم أنها تسارع إلى نجدة تلك الفتاة التي لم تتلق تدريباً من قبل على أي شيء ، والتي أُعِدَّت على طريقة الرجال ومناهجهم ومراحل دراستهم ، لتكون مسخاً مشوهاً لا هو رجل ولا هو امرأة على السواء !

تسارع إلى نجدتها بتوريطها في مزيد من البعد عن فطرتها السوية ، ومزيد من تقديمها قرباناً للشيطان !

لا تشغلي بالك بهذه الأمور !

تريدين الطعام ؟ المطاعم على استعداد لأن تقدم لك ولزوجك الطعام الذي ترغبان فيه . وهناك وجبات خفيفـــة تقدم في كل مكان لقاء دريهمات ، تسد الجوعة وتصرف النفس عن طلب الطعام .

تريدين أحداً لتنظيف البيت وترتيبه وأنت مشغولة في وظيفتك ؟ هناك فتاة بالأجر تأتي إليك ساعة كل يـــوم أو كل أسبوع أو كلما طلبت .. وفّري من راتبك جزءاً لهذه المهمة واستريحي من العناء .

رزقت بأطفال ؟ لا بأس عليك ولا حرج .. المحاضن موجودة تبذل لطفلك العناية الكاملة التي لا تستطيعينها في بيتك ولو كنت متفرغة ! حمام دافئ كل يوم . طعام موزون بالجرام . تدريب جثماني على أسس علمية . لعـــب . تسلية . تعليم . كل ما تحلمين به من رعاية للأطفال ..

نعم .. نقول نعم مؤقتاً ! وماذا بعد ؟!

وبعدُ يكون البيت كما وصفه (ول ديورانت) في كتابه ، أشبه بفندق يلتقي فيه الزوج والزوجة اللذان يقوم كل منهما بدوره في الزواج كأنه وظيفة : الرجل في وظيفة الزوج والمرأة في وظيفة الزوجة . ويبرد البيت ويظلم ويبدو في حسيهما كأنه سجن مغلق ، فتشرد الزوجة ويشرد الزوج ويتشرد الأولاد ! ولا يعـــود في البيـــت ذلـــك الـــسكن والسكينة التي جعلها الله آية في الزواج :

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا** ... ﴾ [الروم : 21]

أما التربية في المحاضن فيكفينا شهادة من الجاهلية ذاتها ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا** ... ﴾ [يوسف : 26] كتـــاب (أطفال بلا أسر) لأنّا فرويد ، الذي تتحدث فيه عن الاختلالات التي تتم في نفوس أطفال المحاضن رغم كل (العناية) التي تبذل فيها للأطفال ، لأنهم لا يجدون الحنان الضروري لهم والذي لا (تفرزه) إلاّ الأم .. الأم الحقيقية لا الحاضـــن التي تقوم (بوظيفة) أم .

والله أرأف بالمرأة من أن يعرضها لهذا الفساد في الفطرة الذي يحول حياتها إلى ضياع نفسي وروحي وعـــاطفي ، وأرأف بالأطفال من أن يعرضهم لهذا العنت الذي يسلمهم إلى الضياع ..

لهذا فإنه سبحانه يضع الموازين الحق التي تستقيم بها الأمور في الحياة الدنيا كما يضع الموازين الحق ليـــوم القيامـــة ليسأل الناس عما أفسدوا في الأرض بنبذ منهجه واتباع سبل الشيطان :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِـــهِ لَعَلَّكُـــمْ تَتَّقُونَ ... ﴾ [الأنعام : 153]

إنّ للفطرة ثقلاً ووجوداً حقيقياً مهما حاولت هذه الجاهلية إنكاره أو إخفاءه أو تغييره . وحين تُشَدّ الفطرة شداً إلى غير وجهتها الطبيعية فلقد تحتمل ذلك فترة من الوقت ، يخيّل للجاهليين فيها أنهم انتصروا عليها ونـــالوا مـــأربهم منها ! ولكنها -بصرف النظر عن عودها أو عدم عودها إلى طبيعتها- لا بد أن تظهر عليها أعراض المرض الناجمة من شدها إلى غير وجهتها .

لا يمكن أبداً أن تستوي الحياة بالفطرة سوية ومنحرفة على السواء ! ولا يمكن أن تـــستقيم الأحـــوال بـــالفطرة موجهة إلى غير وجهتها الطبيعية كما تستقيم بها في وجهتها الصحيحة ووضعها الطبيعي .

وهذه الأمراض النفسية والعصبية والعقلية والخلقية .. والقلق والاضطراب والحيرة والضياع .. والأسر المفككة ، والأطفال المشردون والمراهقون الجانحون .. وغيرها من الأعراض التي تجتمع المؤتمرات النفـــسية والطبيـــة وعلمـــاء الاجتماع وعلماء القانون وعلماء الجريمة لمحاولة حلها .. هذه كلها لم تنشأ اعتباطاً بغير أسباب . ولا هـــي نتيجـــة (حتمية) للحضارة كما يزعمون . إنما تكمن أسبابها الرئيسية في المحاولة الشيطانية الدائبة لتغيير خلق الله ، وترجيـــل المرأة وتأنيث الرجل ، والمجافاة المقصودة لكل ما يأمر به الله .

والفتاة المسلمة لا ينبغي لها بحال أن تقع في غواية الجاهلية المعاصرة وهي ترى برهان ربها في هذا الفساد المـــدمر الذي يُؤْذِن بانهيار هذه الحضارة من قواعدها .

وفي المجتمع المسلم -الذي يتحاكم إلى شريعة الله ويلتزم بمنهج الله- تعد الفتاة لوظيفتها -كما قلنا- منذ مرحلـــة المراهقة بصورة جادة ، حتى إذا جاء التكليف كانت مهيأة له بالفعل وعلى أحسن صورة .

وليس معنى ذلك ألا تتعلم !

فلا الإسلام أمر بتجهيلها ، ولا تركُها جاهلةً وعدم تعليمها مما تستقيم به الأمور في المجتمع الإسلامي !

ولقد كان وجود المرأة الجاهلة في المجتمع الإسلامي -على غير ما أمر الله ورسوله ﷺ- من أكبر الثغرات التي نفذ منها الغزو الفكري إلى العالم الإسلامي في محاولة الأعداء الجاهدة للقضاء على الإسلام في القرنين الماضيين .

وما (قضية المرأة) المثارة في مجتمعاتنا من المحيط إلى المحيط ، على نسق القضية الأوروبية وبنفس أهــدافها ونفــس نتائجها ، من تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد وتفكيك الأسرة وإفساد الجيل الناشئ وإشاعة القلــق والاضــطراب والحيرة والضياع .. ما هذه القضية على هذا النحو إلاّ نتيجة من نتائج وجود هذه الثغرة التي نفذ منها الأعداء .

ولو كان المجتمع الإسلامي في القرنين الماضيين ملتزماً بمنهج الله حقاً ومنفذاً لتعاليمه على بصيرة ، مــا اســتطاع الأعداء أن ينفذوا من هذه الثغرة ولا من غيرها . لأن الإسلام الحق يسد الثغرات على الأعداء ، ولأن الله ﷻ تكفل بوقاية الأمة المسلمة من كيد الأعداء :

﴿ ... **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ [آل عمران : 120]

تكفل –سبحانه– بوقايتها من خلال طاعتها لله وتنفيذ أوامره . فقد جعل الله الوقاية في هذه الطاعة ذاتها ، لأنها –أي الطاعة– تحصن الفرد المسلم والمجتمع المسلم في جميع الاتجاهات . تحصنه بالقوة السياسية والعسكرية والاقتصادية التي تكون للدولة المسلمة ما دام أهلها عاملين بمقتضى الإسلام . وبالقوة الخلقية التي تستعصي على كيد الــشيطان . وبالقوة العلمية التي يدفعهم إسلامهم إلى تحصيلها .. وبكل أنواع القوة على الإطلاق .

أما حين يتهاونون في تنفيذ أوامر ربهم فهنا تنفتح الثغرات للأعداء ، وتنحسر عنهم الوقاية الربانية لأنهم لم يقوموا بشرطها الذي اشترطه عليهم ﴿ **وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا** ﴾ أي تستقيموا على أمر الله ومنهجه .. ومن ثم ينفذ الأعداء من الثغرات .

والجهل الذي كان يغلف المرأة المسلمة ، والمعاملة الجاهلية التي كانت تعامل بها في المجتمع المسلم[1] ، هــي الــتي هيأت للأعداء أن ينفذوا إلى العالم الإسلاميّ عن طريق دعاة يحملون أسماء إسلامية يطالبون بضرورة تحريــر المــرأة المسلمة وتعليمها[2] .. فكان أن (تحررت) و(تعلمت) لا على النحو الذي يريده الله ﷻ ، ولكن على النحو الــذي يريده الشياطين !

وتطبيق المنهج الإسلاميّ في التربية لا يقتضي بحال أن تكون المرأة المسلمة جاهلة لا تتعلم ، حتى بصرف النظر عن أن الأعداء قد نفذوا من هذه الثغرة بالذات لإفساد المجتمع المسلم .

لأن طلب العلم فريضة كما قال رسول الله ﷺ . وهو –من ثم– فريضة على كل مسلم ومسلمة .

ولأن تربية النشء الجديد لا تكون عن جهالة بل ينبغي أن تكون على علم وعلى بصيرة إذا أريد لهــا أن تــؤتي ثمارها على طريقة الإسلام .

والآن بالذات –ونحن بصدد الدعوة إلى الإسلام ، وتعريف الناس بما جهلوه منه ، وتربيتهم عليه ، وإزالة الغربـــة التي أحاطت به– نحتاج إلى داعية مسلمة تقوم بالدعوة في صفوف الفتيات . ولا بد للداعية أن تكـــون متعلمـــة لا جاهلة .

ولكن أي علم هو الذي نريد ؟

نتحدث أولاً عما ينبغي في المجتمع المسلم –حين يوجد هذا المجتمع– ثم نتحدث عما نستطيعه اليوم في مجتمعاتنـــا الجاهلية المعاصرة .

فأما في المجتمع المسلم فهناك علم مشترك بين الشاب والفتاة والمسلمين جميعاً صغيرهم وكبيرهم –كلٌّ بحسب سنه وما يناسبه– هو العلم بالدين .

وقد كان العلم بالدين قد تحول عند الأجيال المتأخرة من المسلمين إلى مجموعة من الدراسات الفقهية الـــضيقة ، وفي دائرة العبادات بصفة خاصة ، لا تعطي روح الإسلام الحقيقية ، ولا تنشئ تربية إسلامية حقيقية . وكـــان هـــذا أيضاً من الثغرات التي نفذ منها الأعداء .

إنما العلم المطلوب بالدين هو الذي يعطي معرفة بالحقائق الإسلاميّة وهي عظيمة وضخمة وشاملة ، ولا يقتـــصر على بعض مسائل الفقه . فعقيدة لا إله إلاّ الله شيء ضخم جداً أضخم من الكلمة . والصلاة شيء ضـــخم جـــداً أضخم مما تشتمل عليه من حركات وسكنات .. والعلم المطلوب هو الذي ينشئ هذه المعاني الكبيرة في النفـــوس ، ويجعل الحياة تقوم عليها .

وهذا القدر كما قلنا مشترك بين البنين والبنات ، والشبان والفتيات ، والرجال والنساء ، كُـــلٌّ بحـــسب ســـنه واستعداده .

ثم ينبغي أن يكون هناك إلى جانب ذلك (تربية نسوية) تعد الفتاة لوظيفتها وتعلمها ما تحتاج إلى تعلمه من شؤون هذه الوظيفة من إدارة شؤون المنـــزل ورعاية شؤون الأطفال والطرق المثلى لتربيتهم ، وتحوّل مشاعر الجنس الفطرية إلى تهيؤٍ عملي لاستقبال حياة الزوجية المرتقبة ، بدلاً من تحولها تبذلاً وسعياً إلى الإثارة والفتنة في محيط الشباب ، مع الانصراف الكامل عن وظيفة الأمومة في ذات الوقت !

وبعد ذلك تتعلم الفتاة ما تجد في نفسها قابلية له وقدرة عليه بغير قيود .. إلاّ قيداً واحداً ، هو ألا تصرفها هـــذه الدراسة نفسياً وعقلياً عن وظيفتها الرئيسية وتسير بها في طريق الجاهلية المنحرف عن سواء السبيل .

أما في مجتمعاتنا الجاهلية المعاصرة ، فنحن لا نملك البرامج ولا مراحل الدراسة ولا طريقة التدريس ، ولا نملــك المدرّسة المسلمة التي تعطي القدوة بزيها وأخلاقها وفكرها وسمتها الإسلاميّ وروحها الإسلاميّة .

فمهمتنا إذن مقصورة على البيت وعلى التجمعات النسائية التي تنشئها الجماعة الداعية إلى الله .

ولن تكون مهمة البيت سهلة حين يحاول تربية فتاة مسلمة في وسط الخضم الجاهلي . فــالمجتمع كلــه بنظمــه وتنظيماته ، بمناهج تعليمه ووسائل إعلامه ، يحارب الإسلام ، والفتاة المسلمة بالذات ، التي تتحدى بزيهــا –مجــرد زيها– كل صيحات الجاهلية . وتكفي نظرة واحدة إلى فتاة مسلمة ملتزمة وفتاة مستعبدة للجاهلية ليتــضح المــدى العميق الذي انحدرت إليه الجاهلية مع المرأة بالذات ، الزيّ الذي يغطي ولا يصف ولا يشف ويتحاشى الفتنة ، والزي الذي يكشف ويصف ويشف ويعمد إلى الفتنة . نقيضان كاملان من حيث المبدأ ، وهوة واسعة في التطبيق .

والمجتمع يدعو إلى العري والتبرج وإبراز الفتنة ويحارب الالتزام بما أنزل الله . كما يــدعو إلى تعريــة العواطــف وإبرازها وممارسة الفاحشة ، ويحارب النظافة الحسية والشعورية التي أمر بها الله . ويدعو إلى الاختلاط –مع التــبرج– ورفع حاجز الحياء الفطري ، والانطلاق ذكراناً وإناثاً كانطلاق البهيمة ، ويحارب آداب الجنس وآداب المجتمع الــتي قررها الله .

ومن ثم فتربية فتاة مسلمة ملتزمة في هذا الخضم الجاهلي لن تكون مسألة هينة . فضلاً عن تربية فتاة يصل الالتزام في حسها والوعي بحقائق دينها الضخمة الشاملة أن تصلح لأن تكون داعية للإسلام في محيط الجاهلية .

ولكنا –مع الفتاة كما نحن مع الفتى– مطالبون بالمحاولة وبذل الجهد .

لأننا بغير المحاولة لا نصل إلى شيء . ولأننا –بالمحاولة– نحدث على أقل تقدير قدراً من التغيير في الحاضــر ينــبني عليه التغيير المرجوّ في المستقبل . ولأن الله يأجرنا على الجهد المبذول –حين يكون جهد الطاقة– بما تهفو له كل نفس مؤمنة في الأرض : رضاه والجنة .

ولئن كان جهدنا مع الفتاة أكبر من جهدنا مع الفتى بسبب ثقل العراقيل الموضوعة أمام الفتاة أكثر من الفــتى ، فإن ثمرة الجهد كذلك أخطر . فإنشاء أمٍّ مسلمة واعية فاهمة هو شيء ضخم سواء في محيط مجتمعاتنا أو على المستوى البشري كله ، لأنه يعطي النموذج العملي لعودة الفطرة إلى حقيقتها .

(1) كان المجتمع مسلماً بصفة عامة لتطبيق شريعة الله فيه ، ولكن كانت فيه انحرافات جاهلية كثيرة من بينها طريقة معاملة المــرأة . ولا تناقض بين الوصفين ، فقد قال رسول الله ﷺ لأبي ذر ﷺ وهو من أجلة الصحابة : « إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ » لأنه سبّ بلالاً ﷺ وقال له : يا ابن السوداء ! أما مجتمعاتنا الحالية فهي مجتمعات جاهلية كاملة –وإن احتوت أفراداً مسلمين في داخلــها– لأنهــا لا تطبق شريعة الله أصلاً ، وإنما تطبق شرائع جاهلية لم يأذن الله بها .

(2) نادى أحد المؤتمرات التبشيرية سنة 1911م بضرورة العمل على تحرير المرأة المسلمة وتعليمها (انظر كتاب الغارة علــى العــالم الإسلاميّ ترجمة محب الدين الخطيب) وفي نفس السنة نادى قاسم أمين بضرورة العمل على تحرير المرأة المسلمة وتعليمها !